التمركز حول الذات وإنكار وجود الذات الإلهية

–قراءة نفسية لبعض جوانب الميول للإلحاد–

ا.د حنيفة صالحي– مخبر سيكولوجية مستعمل الطريق –جامعة باتنة1–

ملخص: يعتبر الإلحاد من الظواهر المعاصرة المثيرة للدراسة والمتابعة خاصة في المجتمعات الإسلامية. يعلّلها البعض بالعقلانية والتفكير العلمي معتبرين أن الأدلة العلمية لا تدعم وجود إله، والبعض الآخر يبرّرها بتأثير البيئة الاجتماعية والثقافية. كما يذهب البعض لربطها بدوافع نفسية ذاتية وهذه هي الزاوية التي تناولنا من خلالها هذه القراءة النفسية البسيطة لظاهرة الميل للإلحاد، حيث ركّزنا على "التمركز حول الذات" (كسمة نفسية) المعروف بتركيز الإنسان –خاصة في قرن الواحد والعشرين– على رغباته وحاجاته وإنكاره لغيره ويصل حد الإنكار للذات إلهية.

الكلمات المفتاحية: الميل للإلحاد– التمركز حول الذات– إنسان القرن الواحد والعشرين

ABSTRACT: Atheism is considered a contemporary phenomenon that is of particular interest for study and observation, especially in Islamic societies. Some attribute it to rationality and scientific thinking, believing that scientific evidence does not support the existence of a god, while others justify it by the influence of social and cultural environments. There are also those who link it to self-centered psychological motives. This is the angle from which we have approached this simple psychological examination of the phenomenon of inclination towards atheism, focusing on "self-centeredness" (as a psychological trait) that characterizes people, especially in the 21st century, with a focus on their desires and needs and a denial of others, extending even to the denial of the existence of a divine being.

Keywords: inclination towards atheism, self-centeredness, 21st-century human

- مقدمة:

في زمن تراصّت فيه الأزمات والكوارث والمحن وكثر فيه الجدل والصراع ورفض الآخر من المنطقي جدا أن يكون الإنسان عرضة للهزات النفسية والاضطرابات العقلية وسوء التوافق الاجتماعي. من المتوقع جدا أن نجد جحافل من الناس تهيم على وجهها في كل اتجاه تبحث عن مرجعية تعود إليها ومنظومة قيمية تحتكم إليها ومصدر قار وثابت يلهمها الصواب وحسن التفكير...

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نصف إنسان القرن الواحد والعشرين بالتوازن والثبات لما نراه من اضطرابات سلوكية واهتزازات نفسية واختلالات علائقية اجتماعية جعلت المجتمعات البشرية برمتها في مرمى النقد والتهديد والخطر المحدق، وهذا ما جعل المختصين يحاولون إيجاد طرق وآليات لإعادة التوازن لهذا الكائن البشري بعد كل هذا التوحش الذي أصبح يسّم حياته، فهل هو تخل عن إنسانية كانت راسخة في أعماق الجميع؟ أو هو جهل بمآلات كل هذه الرغبات الجامحة لإشباع كل هذه الملذات؟ أو هو انغماس مطلق في عالم الماديات وابتعاد كلي عن الروحانيات؟ هو كل متداخل وفي نهايته هو وضع يعكس انسلاخ الإنسان عن طبيعته التي جُبِل عليها وإنكار لفطرة خُلِق عليها وكان عليه أن يحترمها ويقدّسها عوض أن يتنكّر لها...وما من حقيقة وجودية مطلقة يمكن أن يرتكز عليها الإنسان أكثر من كونه كائن مخلوق عاجز ضعيف لوحده وبمفرده، له خالق أحسن خلقه ومكّنه من وسائل وآليات ليعيش حياة مستقرة متوازنة لحد كبير، لكن طالما غابت هذه الحقيقة عن ابن آدم كان له أن يعيش كل هذا الكدر والشقاء وقلة الراحة.

والغريب أنه في زمن التقدم والتطور والتكنلوجيا –وهي آليات مستحدثة لراحة البشرية– تكثر المحن والمنغّصات فهل هذه الاختراعات زادت من رغبة الإنسان في التحكم والسيطرة المطلقة على حياته وبيئته ومحيطه؟ أم أنها

آليات زادت من عزلته وانكماشه على ذاته وتمركزه حولها؟ هل هي لذة التفوق والرغبة في " التأله" أم هي غربة الذات في عالم الملذات والأريحيات؟؟؟

I- الإلحاد بين الميل والقناعة:

أسئلة وتساؤلات تتبادر لأذهان الجميع وتصّر على أن تجد لها إجابات وغالبا ما يكون هذا الإلحاح لدى المتدبرين والعاملين والمختصين في مجال العلوم الإنسانية، قد تختلف ثقافاتهم وإيديولوجياتهم ولكن واقع الحال مثير فعلا للبحث والانشغال وهنا قد تختلف الأطروحات. ويحدث أن تكون المجتمعات الإسلامية أكثر المجتمعات اهتزازا رغم أن مرجعيتها العقدية تتيح لها كل أنماط الراحة والتقبل والإذعان لما هو مقدّر، بل تتيح التفكير بكل عقلانية وموضوعية في الإشكالات المطروحة وتمنح فرصة للحرية في التفكير والتدبر للفرد المسلم وحرية اتخاذ القرار وفق تفسير ديني متوازن ومنسجم فكيف ظهرت كل هذه الآفات والاختلالات في شخصية الفرد المسلم ونظامه الاجتماعي؟ بل كيف وصل بعض الأفراد المسلمين إلى خذلان ذواتهم وأهليهم بطرق تفكيرهم اللامنطقية؟ كيف وصل الأمر مثلا لانتشار ظاهرة الإلحاد خاصة لدى الشباب "المثقف" من يدّعي أنه بعد تفكير وغربلة وتأمل في واقعهم وواقع مجتمعاتهم تأكدوا أن "الله –جلّ وعلا" غير موجود وهذه مجرد أسطورة وأكذوبة اخترعها الأولون ليحكموا سيطرتهم على تفكير الناس؟؟

هنا نحن نقف أمام مفهوم الإلحاد الذي يعرفه البعض على أنه: "الإقرار الذاتي بإنكار وجود الإله استنادا لرؤية فكرية، تترجم ذاتها كتوجه عبر عدة مستويات يمكن أن نركز على المستويين التاليين: مستوى معرفي (يعبر عن نفسه في مجموعة من التصورات المعارضة للتصورات الدينية التقليدية حول الحياة والموت ووظيفة الإنسان في العالم وغيرها من القضايا)، ومستوى سلوكي (يتجلى في الأفعال والممارسات المخالفة للممارسات الدينية المستقرة أو عدم ممارسة الطقوس الدينية ككل)" (عبد الله، 2016)

فالإلحاد مصطلح عام يستعمل للدلالة على تيار فكري وفلسفي ينكر وجود الله لعدم توفر الأدلة على وجوده لأن الإنسان الواعي –حسب هذا التيار– هو الذي لا يؤمن إلا بما تدركه حواسه ويكون قابلا للملاحظة والقياس. يقول ماركس"إن نقد الدين يُخرج الإنسان من أوهامه ويحمله على أن يفكر ويعمل وينظّم واقعه كرجل تخلص من الوهم، وبلغ الرشد حتى يدور حول ذاته حول شمسه الحقيقية، وما الدين إلا الشمس الوهمية". وادعى ماركس أن الإيمان بالله يعني "هدم قيمة الإنسان وقدرته" (شاهين، عيسى،2016)

حتى أن ماركس وأتباعه كانوا يرون أن الدين أفيون الشعوب حتى تظل هذه الشعوب في موقف المستضعف الذي يقبل بالفقر وقلة الحيلة والمكسب من باب تدينه وبالتالي يعطي الأولوية للحكام أن يتحكموا في الثروات بكل أريحية، وهي نظرة ليست خاطئة تماما ليس لأن عدم الاعتقاد بالله فيه صواب وحكمة وإنما لكون الأنظمة السياسية تستغل فعلا الدين كمخدّر لتُبقي الشعوب في دائرة القبول بالقضاء والقدر والتقرب لله بالفقر والضعف وقلة الحيلة.

ويقدم الفكر الماركسي صورة نفسية للإنسان المتديّن أو من يدين بدين معين على أن هذا الإنسان يبحث في صورة الإله عن صورة مثالية لنفسه "يُسقط الإنسان بخياله نسخة مثالية من نفسه، ويجب أن يُمكِّنه نقد الدين من إدراك هذا الجهاز المرآتي الذي يجعله يُسمّي «الله» ما هو إلا «انعكاسه» الخاص. لذلك يجب تحقيق هذا النقد وإعادة الجوهر الإنساني المُسقَط في العالم الآخر إلى العالم السفلي" (Tinland ,2017) وهو بهذا يؤكد أن انتقاد الدين هو أول خطوة في طريق تطور الإنسان مثله مثل انتقاد السياسة وإذا أحس الإنسان أنه يحتاج للدين فليس لأنه محدود وغير كامل وإنما لأنه بائس ومرد بؤسه هو خضوعه لنظام يحكمه.

حتى و لو كان هذا الفكر الماركسي قديما نوعا ما من الناحية التاريخية إلا أنه يعكس نوعا من التعنت يواجه به الإنسان خالقه، نوعا من التصميم على الإنكار دون تقديم مبررات مقنعة و لذا نجد أن الكثير من المختصين

يقرّون أن الإلحاد المعاصر ليس منطقياً ولا علمياً، وإنما إلحاد تصميم ... تصميم بالرفض لفكرة الله ربما لكون الانغماس الشبه مطلق في عالم الماديات و المستهلكات يوحي للكثيرين أن الذات الإلهية مجرد فكرة تجريدية ابتدعها الإنسان طالما أنها غير محسوسة و غير ملموسة ،ولو أن حواس الإنسان في حد ذاتها لا تستطيع ملامسة أو إدراك كل ما هو مادي ملموس موجود في محيطها.

وقد ذهب الكثير من مفكري وعلماء القرن الماضي (على غرار فرويد، لاكان،أنشتاين،داروين، سارتر....) إلى الأمل في أن يزول الدين بعد أن يتطور المستوى الثقافي للبشر ، و لعلّ مقولة مشهورة للعالم Neil deGrasse Tyson تايسون تختصر هذا التوجه حيث يقول: "بمجرد أن تقتنع بأن الإجابة هي الله، تصبح عديم الفائدة بالنسبة لي في المختبر لأنك تخليت عن البحث عن السبب الحقيقي!"و عالمنا اليوم قد يسائل ويجادل ويناقش من هو متديّن ويخلي سبيل الملحد و يتركه في شأنه لأنه لا يثير أي إشكال أو معضلة (Barillot, 2010)

وتبقى هذه القضايا المرتبطة بوجود الإنسان وبطرق معيشته التي تنطلق أصلا من أنماط تفكيره وأيديولوجياته من القضايا المثيرة دائما للطرح والتساؤل، فيها من يريد أن يجد آليات التحكم والتأثير في البشر من خلال فهم طرق تفكيرهم، وفيها يسعى لفهم هذا الكائن المعقد المفرد والاجتماعي، هذا الكائن الأناني الذي لا يستطيع أن يعيش بمفرده ولذا يعتبر التمركز حول الذات من الأساسيات النمائية للإنسان والتي يجب أن يتعداها ويسيطر عليها لتستقيم حياته. فالتمركز حول الذات لبنة أولى لبناء تصور موحد عن الذات لتحديد وجودها ثم يصبح منطلقا لتأسيس تقدير الذات والثقة بالنفس ليصل في محطة متقدمة من النمو ليكون حاجزا يجب تجاوزه لتحقيق الفرد الاجتماعي، عضو في جماعة ينتمي إليها ويحقق ذاته ووجوده من خلالها. لكن هذا الانكماش على الذات أضحى اليوم وضعية سيكولوجية ينغمس فيها الأفراد وهم راشدون وكهول ومسنون بفعل تطور الفردانية وحب الذات وزيادة كبيرة في نرجسية الكثيرين، ربما بفعل تراجع التواصل الحقيقي والمباشر بين البشر وقد يعود

للأنانية المفرطة وانعدام الثقة في الشركاء الاجتماعيين ،وفي كلتا الحالتين نحن أمام فئة من الناس تعتقد في ذاتها القدرة على تجاوز الآخرين وتعدي كل السلطات التي تحيط بها وقد يكون من بينها السلطة الإلهية لنصل حد إنكار هذه السلطة و هذا الوجود الإلهي برمته، فنحن نتساءل هل هناك علاقة بين هذا التمركز حول الذات والميل للإلحاد؟

II-الحاجة للإيمان والارتباط بالدين:

من الضروري جدا أن نضع الظاهرة الدينية في نصابها الحقيقي لنفهم أهمية التدين عند البشر لأن الإنسان في بحث دائم عن معنى لوجوده ومعنى للحياة عموما، والدين يجيب على الأسئلة الأساسية حول الوجود والأصل والمصير الإنساني. كما أنه يضع قواعد أخلاقية وقيم مرجعية يهتدي بها البشر في أفعالهم وسلوكياتهم وهذا ما يساعد في هيكلة مجتمعات متجانسة وعادلة ويحدّد من خلال الطقوس المعمول بها مراحل أساسية في حياة الأفراد مثل الميلاد والزواج والموت. وعلى الرغم من اختلاف الأديان واختلاف المجتمعات البشرية في التعامل مع الدين إلا أنه يظل مرجعا يخلق شعورًا بالانتماء حيث تعزِّز الممارسات الدينية الجماعية (مثل الصلوات والأعياد والاحتفالات) الروابط الاجتماعية والشعور بالهوية المشتركة وهذا ما يساعد في نقل التقاليد الثقافية ويؤثر على أنماط الفنون والأدب وغيرها من الجوانب الثقافية والمعرفة التاريخية، ولهذا فهي تدرج غالبا في المناهج التعليمية في العديد من البلدان والمجتمعات التي لا تعترف باللائكية والعلمانية.

وعلى المستوى النفسي الشخصي يساعد الدين على التأمل والاستبطان الذاتي والتفكير فيما يحدث داخل الفرد وما يحدث له في حياته. كما يشكّل مصدر دعم أساسي في الثبات والاستقرار النفسي حيث نجد بعض العلاجات النفسية وحتى تدابير المساندة الاجتماعية تعتمد على الدين ومبادئه في تخليص الأفراد والجماعات من الأزمات والاضطرابات التي تعيشها. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الظاهرة الدينية كما يراها حسن حنفي "ظاهرة

إنسانية، فالدين ليس ظاهرة متعالية خارج الزمان والمكان والناس والتاريخ، وتعتبر أيضا ظاهرة نفسية بالأساس، وظاهرة اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية وقانونية وفنية وميتافيزيقية" (بغداد ، 2008).

و مع هذا يجب أن تكون لنا القدرة على التفريق بين الدين و الظاهرة الدينية على حد قول محمد حيرش بغداد في تلخيصه لمجريات الملتقى الدولي حول "الظاهرة الدينية قراءات جديدة من العلوم الاجتماعية والإنسانية"المنعقد عام 2008 في جامعة معسكر حيث يقول :"من المؤكد أن الطقوس الدينية اليوم حاضرة أكثر من أي وقت مضى، ولكنها طقوس في أغلبها بدون روح، فهي تعبر عن الآلية والرتابة سعيا للارتباط بالله من أجل تحقيق خلاص فردي "(بغداد ، 2008) و هنا يمكننا أن نتساءل إن كان الإلحاد الظاهر أو الذي يدّعيه البعض مجرد تنكر وانفلات من ممارسة الطقوس الدينية و ليس تنكرا أو إنكارا لوجود الله؟ وهنا تكون الفكرة منشؤها الفرد وتبقى في دائرته الخاصة وليس لها علاقة بفكرة وجود الله ، وإن كان توارث الطقوس الدينية خاصة في المجتمعات المسلمة قد أفرغ هذه الطقوس من حقيقتها الروحية فإنها اليوم في عالم مادي جاف قد تمّ التنكر لها ولذا وصل الأمر لحد الانسلاخ عن كل ما له علاقة بالدين. ومع السقطات الأخلاقية التي يعرفها العالم بأسره تبيّن أن الدين لم يعد مرجعا أخلاقيا بل صورّه الكثيرون على أنه مجرد لجام لحرية الأشخاص.

III-التمركز حول الذات والمسار النمائي للإنسان:

حين يقول أحد المفكرين:" لبناء مبادئ الأخلاق، لا يحتاج الناس إلى الله أو إلى الدين، بل يحتاجون فقط إلى الفطرة السليمة والتفكير في طبيعتهم وأهداف المجتمع وأعضائه. يجب أن نوضّح للناس أن الخير يجب أن يُفعل لأجلهم وليس لأن الله يطلب ذلك، وأنه يجب الامتناع عن الشر لأن العقاب في هذا العالم وليس في الآخرة". (Vincent,2016) نفهم أن تقوقع البشرية على نفسها واهتمامها بما يمكن أن تقدمه وتفعله لنفسها دون "مساعدة أحد" نابع من طبيعة موجودة بداخل كل إنسان و هو التمركز حول الذات.

التمركز حول الذات من خصائص النمو في الطفولة يتجلى في مرحلة الطفولة المبكرة يمكن أن نعرفه على أنه عدم القدرة على إدراك وجهة نظر الآخر (Boyd &Bee, 2017; Bouchard, Fréchette &Gravel, 2008; Piaget &Inhelder, 1980; Papalia &Martorell, 2018). يتركز الأطفال على وجهة نظرهم الخاصة ويجدون صعوبة في أن يكونوا موضوعيين كما يعتقدون أن العالم بأسره خُلق لهم وموجود لخدمتهم والكرة الرضية لا تدور إلا حولهم بتعبير مجازي.

هذا أمر ملاحظ وعادي في مرحلة الطفولة لكن النمو المعرفي والذهني يتيح فيما بعد المرور إلى مستويات عقلية أكثر تطورا وأكثر انفتاحا: بين سن 2 و 6–7 سنوات يدخل الأطفال في المرحلة ما قبل العمليات العقلية، تتميز هذه الفترة بتطور الوظيفة الرمزية، أي بداية ظهور القدرة على ظهور الصور العقلية للأشياء التي تترسخ في عقل الطفل دون أن يكون لها بالضرورة حضور مادي ملموس دائم وهذا ما يُعرف بالتمثلات الذهنية. مثل هذا التطور المعرفي يعني أن ذكاء الأطفال يصبح تدريجياً أكثر مفاهيمية. أي أنه يبدأ باستدخال المفاهيم المختلفة البسيطة عن نفسه وعن المحيط الذي يتواجد فيه ولكن حسب بياجي وانهيلدر (1980)، "يعتبر التمركز حول الذات إحدى حدود التفكير ماقبل العملياتي الذي يؤثر على العديد من السلوكيات الملاحظة خلال هذه الفترة" (Fréchette &Morissette, 2011) بمعنى أن التمركز حول الذات في بعده العاطفي والانفعالي والمعرفي يحد من قدرة الطفل على أن يتعامل مع العالم بموضوعية وأن يستدخل كل مفاهيمه بسلاسة دون أن يبحث عن ذاته وسط كل هذه المعطيات و دون أن يجد هذه المعطيات غريبة و غير مفهومة لأنها ليست لها علاقة مباشرة معه أو أنها لا تخدمه ولا تلبي رغباته الخاصة.

"يتدخل التمركز حول الذات هنا كميزة رئيسية في تنظيم الطفل العقلي خلال الفترة التي تمتد من 2 إلى 10–11 سنة. على وجه الخصوص بين 4 و7–8 سنوات، يكون غالبا سببا في بعض السلوكيات الخاطئة التي

تظهر في جميع الجوانب المتعلقة بالنمو: السببية، العمليات الرياضية المنطقية والمكانية–الزمانية، حفظ الكميات، اللغة، التواصل والحكم الأخلاقي." (Fréchette &Morissette, 2011) وعموما يمكن أن نقول أن فهم الظواهر الطبيعية، وبخاصة مفهوم الحياة، يكون، وفقًا لبياجي، مشوبًا بعدة حدود للتفكير ما قبل العملياتي.

"كما أن التمركز حول الذات يظهر بطريقتين عندما يتعلق الأمر بالظواهر الطبيعية: الإحيائية والاصطناعية. تتمثل الإحيائية في إضفاء خصائص بشرية على الأشياء غير الحية أو الحيوانات، هكذا ينطلق الطفل مما يعرفه أفضل: أي البشر، ليعمِّم خصائص البشر على ما هو غير بشري. أما الاصطناعية، فهي الاعتقاد بأن كل شيء قد تمّ صنعه من أجل ومن قِبل البشر". وهنا نرى أن التمركز حول الذات (خارج إطار المسار النمائي الطفولي) هو طريقة تفكير ووجود تحصر الإنسان في دائرة مدركاته المباشرة والملموسة وحتى مفاهيمه فغالبا ما يربطها بما يعرفه وما يريحه ولذا قد يكون من المسببات السيكولوجية للميل للفكر الإلحادي.

IV–إنكار وجود الذات الإلهية هل هو زيادة في التمركز حول الذات؟

سؤال يتماشى مع الطرح الذي نقدمه بل هو محور هذا العرض، فنحن بتقديمنا لمفهوم التمركز حول الذات كعنصر من عناصر البنية النفسية الطفولية نحاول أن نزيحها إلى ما قد يعيشه الإنسان في القرون الأخيرة من حيث تقوقعه على محوره الخاص وعُجبه بنفسه وبإمكانياته وقدراته وعجزه على التعاطي بموضوعية مع ذاته وحياته ومعنى الوجود عموما طالما أن ما يدور حوله لا يخدمه بالضرورة ولا يغذي كبرياءه، بل ويتطلب منه أن يقدم بعض التنازلات ليحقق توافقه الاجتماعي وعبوديته لخالقه. ويكون تأثير هذا التمركز كنمط تفكيري ووجودي عائقا لفهم معنى الحياة وحقيقة ضعف البشر وحاجتهم دوما لمن يوجّه سلوكياتهم وينقي سرائرهم ويهذِب طبائعهم.

" في نظرية أولبورتAllport حول سيكولوجية التدين ان المتدينين الذين لديهم توجهات داخلية (أي أن ارتباطهم بالدين يعتبرونه أمر داخلي لا يفصحون عنه ولا يظهرونه للآخرين) فهم غالبا يمتازون بالتسامح، في حين أصحاب التوجهات الخارجية (أي الممارسين علنا للتعليمات الدينية والطقوس او من يريدون إبراز تدينهم) يتميزون بالتمركز العرقي أو التعصب". (Dargentas ,2018)

كذلك في التوجهات الداخلية يعتبر التدين غاية في حد ذاته فهو قيمة معنوية روحية مضافة للإنسان وهذا ما **يجعل الحاجات المرتبطة بالتمركز حول الذات تقل وتتراجع** (1969) Allport لأن الارتباط بالدين هنا يؤدي الوظيفة المنوطة به وهي إخراج الإنسان من قوقعته الداخلية الأنانية والنرجسية لعالم الآخرين حيث يكون الحب اللامشروط والعطاء والتآخي سمة يتدرب عليها الإنسان .ومن مؤشرات السلوك الاجتماعي الإيجابي أو الإيثاري هي: التعاطف، التطوع، العمل الخيري، الشك أو الثقة الممنوحة للآخرين. يتبنى الأشخاص المتدينون سلوكيات مساعدة أكثر من غير المتدينين(Argyle, 2002 ; Beit-Hallahmi & Argyle, 1997 ; Batson *et al.*, 1985.) عكس التوجه الخارجي الذي يتخذه أصحابه كوسيلة لتحقيق أهداف خاصة (مثل الحاجات الاجتماعية كالقبول و المكانة الخاصة...) (Dargentas ,2018) .

وإذا أمعنّا في القراءة السيكولوجية للتدين والارتباط بالدين عموما فإن العلماء ربطوها بالنمو المعرفي (خاصة نظرية بياجي) من جهة وهذا ما أشرنا إليه أعلاه وبالنمو الأخلاقي (نظرية Kohelberg كوهلبرغ)من جهة ثانية لأن التدين هو فعلا ذلك الرابط الذي يجمع بين قدرة الإنسان على التأمل والتفكير والاستبصار (الوعي والنضج) والإذعان الفطري للمرء في أين يكون له التزام سلوكي وما يتعلمه وينشأ عليه من قيم وأخلاق تضبط سلوكياته وتهذب طبائعه وتتحكم في نزواته ورغباته. ولذا ظهرت العديد من التصنيفات التي تربط بين هذين البعدين في النمو عند الإنسان و لعلّ أهمها هو تصنيف Streib شتريب:

–النمط الديني الذاتي" (subjective religious style) يتميز بالتمركز حول الذات والخيال، ووعي حدسي بأسرار الحياة.

–النمط الديني الأداتي–التبادلي (instrumental–reciprocical or "do–ut–des" religious style) حيث يدخل الطفل– المدرك لاحتياجاته– في علاقة مع الله كآخر وفقًا لنمط العقاب/المكافأة.

– النمط الديني التبادلي (mutual religious style) الذي يتوافق مع علاقات التبادل المبنية على الحب والاحترام وأمان المجموعة الدينية التي ينتمي إليها.

– النمط الديني الفردي–النظامي (individuative–systemic religious style) الذي يهيمن عليه التفكير، والشك حول الدين، والاستدلال النقدي.

–النمط الديني الحواري (dialogical religious style) الذي ينقل التكامل بين التناقضات والانفتاح تجاه الأفراد الذين لديهم توجهات دينية مختلفة.

يلاحظ من خلال هذا التصنيف كيف يتدرج الإنسان منذ طفولته في التشبع بالمعتقدات الدينية وكيف يبدأ بالخروج رويدا رويدا من تمركزه حول ذاته ليصل لمعنى وجود الله وكيف يستدخله في منظومته العقلية والفكرية والعاطفية والنفسية كحقيقة موجودة ومقدسّة ولو كانت غير مرئية، لكنها تحتاج لبيئة تقدمها وتدمجها في فكر الطفل وتحتاج كذلك لمساحة حرية ونقد ونقاش لينضج الفكر الديني عند الإنسان وتصبح علاقته بخالقه علاقة تتسّم بالنضج والقبول والتشبع، وليس مجرد انصياع باهت لتعليمات إلهية الغرض منها فقط النجاة من العقاب.

V-الثقافة الفردانية وتأليه الفرد:

" يتعلق الإلحاد- الذي يجب تمييزه عن عدم الإيمان البسيط أو عدم الاعتقاد السلبي- بمشكلة هيكلية غير محلولة في الذاتية. هل يمكن تصور وجود إنسان لا يحرّكه أي اعتقاد، ولا أي أمل أو عناية إلهية، ولا أي خلاص، ولا أي خير، سواء في الحياة الدنيا أو في الآخرة؟ " .Hiltenbrand, J. (2005) فعلا هل يمكن تصور ذلك؟؟ إنسان يعيش بطريقة بهيمية لا يفكر في أخطائه وذنوبه ولا يفكر فيما عساه يكون بعد الموت؟؟ إن وُجد هذا الإنسان فهو لا يعيش بمفرده مها انعزل واعتزل الناس "بما أن الإلحاد ينكر أشكال السلطة المستوحاة من الدين أو أكثر بشكل عادي التقليد القائم على العادات الدينية، الذي ينقل المبادئ الأخلاقية والواجبات وقواعد الطاعة، فإن حركته تميل إلى التناقض مع الروابط الاجتماعية وقد تكون سببًا في التفكك الاجتماعي الذي نلاحظه "(Hiltenbrand, J. ,2005)

وطالما أن الإنسان اجتماعي فعلاقاته وانتماءاته الاجتماعية لا يمكن ان تسير وفق ما يشبع الخواء الداخلي لديه إن لم يكن له ارتباط بدين وبتعليمات دينية وبذات إلهية يخاف منها ويلجأ إليها في آن واحد، فالقانون الوضعي وحده لا يمكن أن يكون عادلا في المطلق، له ثغراته وله زلاته وأما القانون الإلهي فهو عادل. والإسلام هو الديانة الوحيدة التي خلدت في الأرض وحافظت على صحتها ومصداقيتها لذلك نجد تيار الإلحاد المعاصر يحاول بكل الوسائل دحض فكرة الدين و التدين ووجود الخالق و يعتمد في ذلك على المعرفة و العلم لتفسير كل الظواهر و تقديم الحجج بعدم وجود الله ويركز في ذلك على فكرة التطور . كما يعتمد هذا التيار المعاصر بالبعد السياسي –حسب ما يراه محمود أحمد عبد الله ويسانده في هذا الطرح الكثيرون-:" تمتاز كتابات الاتجاه الجديد (الإلحاد المعاصر) بالبعد السياسي، فيما لا يمتاز بها الاتجاه القديم .فالقدامى فلاسفة بالأساس. بينما لدى الجدد أجندة سياسية. فهم يريدون منا أن نترك أبراجنا العاجية وأن نغيّر طريقتنا في النظر والعمل.

ويدعوننا لترك الإيمان الديني وأن ننضم لحركة "التحرر الإلحادي"، التي على غرار الحركات الناشطة في مجالات مواجهة العنصرية والتحيز ضد المرأة وغيرها من الحركات الاجتماعية .ليس لأنصار الاتجاه الجديد اهتمام بالفقه الديني فهم يتحدثون عن مفهوم الإله في مطلقه، دون تحديد أي مفهوم له بدقة..." (عبد الله،2016)

هذه المحاولات التبريرية للإلحاد خاصة عند بعض من ينتمون للمجتمعات المسلمة لا تعدو أن تكون مبررات تعكس حجم المعاناة والجهد لإقناع الآخر وكلها تعكس نزوع الإنسان للفردانية والتنصل من كل الروابط الاجتماعية والروحية، والانعتاق من كل ما من شأنه ضبط النفس حيال نزواتها والتحرر من كل التساؤلات المرتبطة بالدين. وما زاد من تحفيز هذه النزعات الفردانية لإنكار وجود الله هو النضال الذي اتخذه البعض في سبيل إثبات كرامة الإنسان ضد كل تدين متعسف وقاهر ومستبد (وهذا ما عرفته المجتمعات المسيحية في بداية عصر النهضة بعد الصراع مع المذهب الكنسي وما عرفته كذلك المجتمعات المسلمة في ظل الطرح الديني المتطرف والدوغماتي وهذا ما هو من الإسلام بشيء!!!) طبعا بالإضافة لعوامل أسرية وتربوية أساسية مرتبطة كلها باضطراب العلاقة مع مصدر السلطة والعقاب، لذا فالاتجاهات الفردانية الحديثة أسقطت الكثير من هذه الرموز القوية في حياة الإنسان وعضدت فكرة "تأليه الإنسان". وعندما يتعلّق الأمر بالخالق من الصعب جدا التمييز بين "مساءلة الواقع" أو "مساءلة القيم".

خاتمة:

لا يمكننا الحديث عن الإلحاد دون أن تكون لنا معرفة بتصورات الناس للدين، فالبعض يتنكّر للطقوس الدينية ويرفض القيام بها والالتزام بتعاليم الدين والبعض الآخر يذهب لأبعد من هذا وينكر وجود الله في المطلق. وفي ظل المعطيات التكنولوجية الحديثة والتطور التقني الذي عرفته البشرية وقف الإنسان على محك المادة

والمعنى، فالمادة تتيح له الراحة وتشبع رغبته في التحكم وامتلاك كل ما يحيط به، والمعنى يملأ روحه بالرضا وراحة البال والتشبع الروحي وهذا ما يقدمه الدين للإنسان كضابط للنزوات والرغبات وموجِّه عام للسلوك الشخصي والجماعي. وعلى اعتبار التراجع المخيف للقيم والأخلاق والتهافت الكبير على السلطة والهيمنة زاد انكماش الإنسان على ذاته وتضخمت أناه وزادت أنانيته بفعل هذا الانكماش فأضحى سعيه مركّزا على تحقيق ذاته ورغباته دون اعتبار علاقاته الغيرية. وحدث أن العلاقة مع الله كانت من العلاقات المثبِّطة لهيمنة الإنسان ولذا كان من السهل أن تزيد الميول للإلحاد، خاصة وأن وسائل الإعلام والتأثير والتوجيه للرأي العام– للأسف– كلها وسائل تهديم للقيم الإنسانية وبالتالي كان الدين ضحية هذا الاتجاه العام. ولو بحثنا إحصائيا لوجدنا صعوبة كبيرة في تحديد مسار هذه الظاهرة –خاصة في البلدان الإسلامية التي يتستر فيها الناس على مثل هذه الاتجاهات السلبية المرتبطة بالدين خوفا من الوصم وحكم الآخر– هل هي في تصاعد حقيقي؟ أم أنها مجرد ملاحظات عينية أعطت الانطباع أن هذا الميل يتزايد؟ أم أن حقيقة الظاهرة ليست إلحادا بالقناعة بل مجرد محاكاة، تقليد أعمى، محاولة لجلب الأنظار ...؟

طرحنا في هذه الورقة إمكانية ارتباط التمركز حول الذات بالميل للإلحاد على أساس أن الأشخاص الذين لا يؤمنون بوجود الله قد يكونون أكثر تركيزا على مصالحهم الشخصية وتلبية حاجاتهم لكن هذه الفكرة ليست بالضرورة صحيحة ويمكن تعميمها لأن بعض الدراسات بيّنت أن هناك أشخاص ملحدون يعبرون عن قيم أخلاقية عالية ويظهرون إيثارا واهتماما بالآخرين. كما يمكن أن يكون هناك مؤمنون يتمحورون حول ذواتهم فالأمر الذي طُرح في هذا المقام لا يرتبط بالانبساطية والانطوائية والأنانية والإيثار ولكن بإمكانية زيادة الميل للإلحاد وإنكار الذات الإلهية لزيادة غير عقلانية في النرجسية وتقدير الذات.

الحقيقة أن هذا التيه الذي يعرفه شبابنا وكل أطياف المجتمع في علاقتهم بالدين إنما هو نتيجة كذلك للفراغ في التوجيه والمرافقة. التدين ليس أمرا للتطبيق فقط بل هو حوار مع العقل واستمالة للعواطف وتقدير للضعف البشري، والعلاقة مع الخالق –جلّ وعلا– لا يمكن اختزالها في ذلك الخطاب الجاف الأجوف الذي تتبناه بعض الدوائر الدينية والتي تخلق الهوة بين عقل المرء وخالقه. وما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه" –رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري–إلا دليل على أن الفطرة التي فطر الله عليها العباد هي التدين والإيمان بالله وبعقيدته ولكن مفعول البيئة والتربية والتنشئة قد تحول دون ذلك وتجعل الإنسان فريسة لنزواته ورغباته وأنانيته ونرجسيته وتمركزه حول ذاته.

المراجع

– أحمد عبد الله ،محمود. (2016). "الإلحاد المفهوم والأنماط والمقاربات البحثية" ،*المجلة الاجتماعية القومية*، المجلد الثالث والخمسون، العدد الثالث، https://jns.journals.ekb.eg/article_205009_f485ce9385be28de7904f64e6943120a.pdf

– حيرش، محمد بغداد. (2012)." الملتقى الدولي حول الظاهرة الدينية،قراءات من العلوم الاجتماعية والإنسانية" ، *إنسانيات* .*Insaniyat*,

URL : http://journals.openedition.org/insaniyat/6859 consulté le 23 juillet 2024;

–شاهين، جميل م. ، عيسى، سارة. (2016). *بحث لمركز فيريل للدراسات في برلين*.

-Barillot, P. (2010). L'athéisme à l'épreuve. *Champ lacanien*, 8, 109-116. https://doi.org/10.3917/chla.008.0109.

- Dargentas, M.(2018). « La psychologie de la religion : courants de recherche et perspectives théoriques », *Archives de sciences sociales des religions* [En ligne], 172

|octobre-décembre, consulté le 19 avril 2019. URL : http://journals.openedition.org/assr/27216.

-Fréchette,N. & Morissette , P.(2011), *Observer et comprendre*, http://developpement.ccdmd.qc.ca/fiche/piaget-egocentrisme-et-jeu-de-cachette

-Hiltenbrand, J. (2005). Athéisme et religion, *Insatisfaction dans le lien social* (pp. 81-121). Toulouse: Érès.https://www.cairn.info/insatisfaction-dans-le-lien-social-9782749204720-page-81.htm

- Tinland, O. (2017). *Karl Marx : « La religion est l'opium du peuple » Extraits commentés*,https://www.lepoint.fr/societe/karl-marx-la-religion-est-l-opium-du-peuple-16-12-2017-

-Vincent,J-D.(2016), *Le cerveau expliqué à mon petit-fils*,Essai,France.

-https://www.universalis.fr/encyclopedie/atheisme/